

الأـدـبـ 20-06-2010

1024- هيبة الدولة، وهيبة القانون، و"الحل هو الحل"

تعتقة الوفد

ما معنى هذا الذي يجري فينا وبيننا وحولنا وخاصة في هذه الأيام؟ هل نحن نعيش في دولة متحضره، لها حكومة تنظم حياة الناس من خلال قانون تقوم على إرسائه فتنفيذه سلطة قادرة، وحاسمة، وعادلة؟

ما الحكاية بالضبط؟

حتى لو لم نكن دولة متحضره لها حكومة، وكنا مجرد قبيلة تعيش في صحراء نائية فإنه لابد أن تكون أعرافها وتقاليدها التي تنظم العلاقات بين شيخ القبيلة وسائر أفرادها وأيضاً بين أفرادها وبعفهم البعض.

حتى لو أنشأنا عشيرة بدائية، فإن ثمة طقوس واساطير متوازنة ومارسة، يقوم على تنفيذها وعلى مشترك، لا يمكن الخروج عليه إلا بثمن قد يصل إلى حد النبذ أو الطرد أو القتل؟

بدأت التعرف على ما هو "دولة وسلطة وأنا طفل في قريتنا (دون أي تقدير للماضي أو إلاء من شأنه)"، وذلك حين كنت أسير ليلاً قرب المقابر، والدنيا كحل أسود، ثم يأتي صوت عم السعداوي الخفيف، "مين اللي جاي"، وبالرغم من أنني أعرف مكانه نتيجة تكرار نفس الصوت ونفس الإجابة للليال سابقة، وبالرغم من أنني أعرف أنه محبني، وأنه مجلس والدى أثناء النهار، وقد ينبهه أن مجد خير الخاص ان لصوصاً نقباوا حائط زريبة في قرية مجاورة منذ ليلتين، برغم هذا وذاك كنت أرتعد قبيل أن أجيبه، "أنا ابن توفيق افندي يا يا السعداوي". كان الخفيف يمثل العمدة، والعمدة يمثل الدولة، وخاصة ليلاً. ثم إنني أحبيت أغنية علمها لـ الشیخ الكفيف "إبراهيم حانا" الذي كان يدق حصاً الين في الحجر أمام دكان البقال جارنا بعد صلاة الفجر، فيووقطنا بدقاته الرتيبة، وكانت أذهب إليه أحياناً وأجلس بجواره وأطلب منه أن يعيد على أغنية عن الغفر، سمعتها منه وهو يدندنها، ولم أتبين أفالظها جيداً حتى أحفظها، فيرددناها لي قائلاً: "إحنا الغفر، إحنا الغفر، مترضّحين نفر نفر "شوف الغفير في وقوته، وهو

عاوج لبنته، ولما يصرخ صرخته، تقولش مدفع وانفجر، إحنا الغفر إحنا الغفر".

للهـلة هـبة مـثـلـ صـرـخـةـ الخـفـيرـ (تـقـولـشـ مـدـفعـ وـانـفـجـرـ)، الدـوـلـةـ هـىـ: قـاـنـونـ، وـقـضـاءـ، وـرـجـالـ شـرـطـةـ، وـآلـيـاتـ تـنـفـيـذـ، وـسـجـونـ، وجـيشـ وـجـزـاءـ وـعـقـابـ، وـمـدـارـسـ لهاـ نـاطـرـ (عـمـلـ الدـوـلـةـ أـيـضاـ!!).

• ولـلـقـبـيـلـةـ شـيـخـ ، وـجـالـسـ، وـأـكـابـرـ، وـأـعـرـافـ، وـتـقـالـيدـ، وـقـعـدـاتـ رـجـالـ، وـتـحـكـيمـ

• ولـلـعـشـيرـةـ الـبـدـائـيـةـ طـقـوسـ، وـهـارـمـ، وـأـسـاطـيـرـ، وـحدـودـ تـحـريـعـيـةـ، وـقـرـابـينـ، وـآبـاءـ مـؤـلـهـونـ، وـأـمـهـاتـ آلـهـاتـ.

إـذـ، بـالـلـهـ عـلـيـكـمـ: بـأـيـ مـقـيـاسـ يـقـاسـ مـاـ جـرىـ الـآنـ فـمـصـرـ الـمـرـوـسـةـ مـقـارـنـةـ بـكـلـ ذـلـكـ؟

هـذـاـ الـوـضـعـ الـمـهـلـلـ الرـخـوـ لـاـ هوـ دـوـلـتـناـ اـنـتـقلـ أـيـضاـ إـلـىـ التـرـكـيـبـ الـأـسـرـىـ حـتـىـ بـهـتـ دورـ الـأـبـ وـاهـتـزـ، وـلـمـ تـسـطـعـ الـأـمـ أـنـ تـحـلـ مـحـلـهـ، فـمـعـ الـعـلـاقـاتـ الـأـسـرـيـةـ تـامـاـ، وـجـينـ جـلـ الصـغـارـ وـالـشـبابـ إـلـىـ الـبـحـثـ عنـ أـبـ بـدـيـلـ فـيـ الـمـدـرـسـةـ، لـمـ يـمـدـواـ الـمـدـرـسـةـ أـصـلـاـ، حـيـثـ اـنـتـقـلـتـ الـمـدـرـسـةـ إـلـىـ الـبـيـوتـ الـخـصـوصـيـةـ أـعـنـيـ الـدـرـوـسـ الـخـصـوصـيـةـ الـتـيـ زـادـتـ وـارـتـفـعـتـ أـسـعـارـهـاـ بـعـدـ "ـالـكـادـرـ"، وـبـاـ لـيـتـ أـبـ (ـالـدـوـلـةـ)ـ اـخـتـفـىـ فـيـ وـاقـعـ الـأـسـرـةـ وـخـارـجـ حـسـ الـأـوـلـادـ وـالـبـنـاتـ فـحـسـبـ، إـلـىـ أـنـهـ ضـعـفـ حـتـىـ كـادـ يـتـلاـشـيـ دـاخـلـ وـعـيـمـهـ أـيـضاـ، أـبـ مـثـلـ الـدـوـلـةـ هوـ جـزـءـ منـ تـكـوـيـنـ وـعـيـنـاـ الشـخـصـيـ، وـلـيـسـ فـقـطـ سـلـطـةـ خـارـجـنـاـ، هـلـ كـانـ جـيـرـ الطـفـلـ كـمـالـ أـمـدـ عـبـدـ الجـوـادـ، وـهـوـ يـلـعـبـ فـيـ الـخـارـةـ، أـوـ يـغـنـيـ فـيـ الشـارـعـ، أـلـاـ يـتـوـقـعـ قـدـومـ أـبـيـهـ السـيـدـ أـمـدـ عـبـدـ الجـوـادـ فـيـ أـيـةـ لـخـطـةـ، مـعـ أـنـهـ (ـكـمـالـ)ـ عـلـمـ فـيـ نـفـسـ الصـبـاحـ أـنـ وـالـدـهـ سـيـ السـيـدـ قـدـ سـافـرـ وـلـنـ يـعـودـ إـلـاـ بـعـدـ باـكـرـ!!؟

ما الذي حدث بالفيط؟

أتـلـفتـ حـولـ أـبـجـثـ عـنـ الـدـوـلـةـ فـيـ الشـارـعـ، رـمـزاـ أـوـ أـثـراـ، أـوـ تـأـثـيراـ، فـلـاـ أـجـدـ مـنـ يـمـثـلـ الـهـيـبةـ وـالـقـانـونـ، وـلـاـ مـاـ يـدـلـ عـلـىـ النـظـامـ وـالـمـسـئـولـيـةـ، مـنـ أـوـلـ عـسـكـرـيـ المـرـورـ، حـتـىـ رـكـنـ الـسـيـارـاتـ عـلـىـ الـجـانـبـيـنـ بـالـطـوـلـ وـالـعـرـضـ وـصـفـ ثـانـ وـثـالـثـ فـيـ أـىـ شـارـعـ مـهـماـ كـانـ رـئـيـسـياـ أـوـ ضـيقـاـ، ثـمـ حـتـىـ صـفـوفـ رـكـابـ الـمـتـرـوـ، حـتـىـ بـرـوزـ كـتـلـةـ بـشـرـيـةـ مـتـلـاقـقـةـ مـنـ الـرـكـابـ مـنـ أـبـوـابـ الـأـتـوبـيـسـ، حـتـىـ سـرـعةـ الـمـيـكـرـوـبـيـاسـاتـ فـيـ شـارـعـ بـورـسـعـيدـ وـقـصـرـ الـعـيـنـ وـعـلـىـ كـوـبـرـيـ أـكـتوـبـرـ، وـكـافـهـمـ فـيـ الـطـرـيـقـ الـمـصـرـاـويـ، حـقـقـ مـطـبـاتـ وـحـفـرـ وـبـلـاعـاتـ شـوـارـعـ مـدـيـنـةـ الـمـقـطـمـ السـيـاحـيـةـ "ـالـبـدـائـيـةـ"ـ سـنـوـاتـ بـعـدـ سـنـوـاتـ، أـنـظـرـ إـلـىـ كـلـ هـذـاـ فـلـاـ أـجـدـ حـسـاـ وـلـاـ خـيرـاـ لـيـةـ دـوـلـةـ وـلـاـ سـلـطـةـ وـلـاـ قـانـونـ

لـكـنـ هـذـاـ الشـعـبـ الـمـصـرـيـ الـعـظـيمـ مـازـالـ يـعـيـشـ، وـيـذـهـبـ بـعـضـهـ إـلـىـ عـمـلـهـ كـلـمـاـ أـمـكـنـ ذـلـكـ، حـتـىـ لـوـ يـعـمـلـ، وـيـعـودـ الـمـوـاطـنـ آخـرـ الـنـهـارـ سـالـاـ (ـغـالـبـاـ)، وـلـيـسـ بـالـضـرـورةـ غـانـمـاـ، لـكـنـهـ لـاـ أـحـدـ يـنـامـ جـائـعاـ (ـغـالـبـاـ)ـ بـعـجـزـةـ لـاـ يـعـلـمـ سـرـهاـ إـلـاـ اللـهـ.

كل هذا كوم ، وما يحدث هذه الأيام كوم آخر

تصدر الأحكام جداً، من حاكم بها قضاة معينون من قبل الدولة فعلاً، يحملون شهادات وخبرات غالبية وتكاد تكون مقدسة ، يطبقون مبدأ الشرعية "أنه لا جريمة ولا عقوبة إلا بنفسي" ، ومحترمون- بالقانون- احتمال الخطأ فيتكون الفرصة للمتاقضين أن يستأنفوا أحكامهم دون أن يكون في ذلك أي مساس بقدرة من أصدر الحكم الأول ، فكل فاض حسب اجتهاده وقيادته التي تكونت أثناء المحاكمة ، وكلام رائع من هذا، يسمح بالنقد، والمراجعة حق النصف، وبالقانون!! ثم يصدر الحكم الشامل بالتنفيذ ، ثم ماذا؟

· بعض مؤسسات الدولة، بما في ذلك بعض الوزراء والوزارات لا ينفذون أحكام القانون

· كثير من الأفراد الواثقين والقادرين والأذكياء والعارفين بمواطن الأشياء يعرفون كيف لا ينفذون القانون بما يشبه القانون، التفافاً.

· بعض المؤسسات الدينية تعلن بكل وضوح أن هذا القانون، أو هذه الجزئية من القانون، لا تسري عليهم ، دون المرور بالهيئة التشريعية ، لأنهم قرروا أنه لا لزوم لذلك ما دام الله سبحانه قدر غير ذلك

· بنفس المبدأ: بعض الذين يتصدرون للإفتاء يوصون أو يسهّلون أو يأمرون بتطبيق فتاواهم الشرعية ، وقوانينهم الخاصة ، من أول استحلال سرقة المال العام (لأن المواطن المؤمن السارق له فيه نصيب) ، حتى تكفي المبدعين أو المخالفين عموماً، وما يحدث يحدث برغم أنف القانون.

· هل يحتاج الأمر إلى أن أشير تحديداً إلى ما يسمى أزمة المحامين والقضاة؟

· وهل يحتاج الأمر إلى تحديد أزمة الكنيسة مع حكم الزواج الثاني؟

· وهل يحتاج الأمر إلى الاستشهاد بمراجعة (سيناريyo يسمى انتخابات مجلس الشورى التي جرت تحت اسم قانون (اللجان!) الانتخابات. "اللجان"! .

· وهل يحتاج الأمر للإشارة إلى ما جرى من اغتصاب أملاك الدولة سواء حول الطريق الصحراوي، أو غيره؟

· الامتحانات يا ناس لها قواعد وقانون طبعاً ، ولكن ذلك لم يعد مهمًا ، وكلما جاء موسم الثانوية العامة ، أخرجت صحف المعارضة ، وتصرّفات الحكومة ، لسانها لكل قواعد القوانين التي تنظم الامتحانات التي إنما وضعت للتمييز التنافسي بين الدارسين (هذا هو التعريف السليم لقانون الامتحانات) ، أصبحت الامتحانات ، بفضل تهميش القانون أو الجهل به ، احتفالية جماعية من الدولة والصحف القومية

والمعارضة معاً، يتراجع فيها قانون الامتحانات ليحل محله التعليق على سهولة الأسئلة أو صعوبتها، وليس على قدرتها على التمييز التنافسي، ويقاس أداء الوزير باتساع ابتسامات الطالبات، واحتفاء تنهيدات الأمهات على صفحات الصحف، وليس بمدى قدرة نظام الامتحان على تطبيق قانون التقييم التنافسي، هذا بعد أن إنهارت تماماً بنيتها الأساسية منذ حل محله "عُرْف الغش الجماعي الذي صار سائداً حتى وصل إلى قوة القانون"

وبرغم كل ما سبق من أول المقال، لم أسمح لنفسي أن أيأس!

ولن أسمح لنفسي أن أيأس!

وكيف أسمح لنفسي أن أيأس؟

إذ ماذا بعد أن أيأس؟